ذاكرة للنّسيان

لقد قضيتُ سنوات عمري وأنا أعمل في التربية والتعليم، وما زلت. لا حاجة لي أن أشرح الأهميّة والحاجة الماسّة لهذه المهنة الشريفة. لا، لن أتحدث عن المعلّم ولا عن مهنة التعليم، فقد تحدثنا كثيرًا، وناقشنا كثيرًا، وتألمنا كثيرًا لما آل إليه حال المعلّمين في أيامنا.

لكن ما يقلقني مؤخرًا ويقضّ مضجعي هو موضوع الذاكرة. إنّ الإنسان كائن ذو ذاكرة، ولا يمكن لحياة البشر أن تستقيم دون ذاكرة.

ففي كل أوجه الحياة تحضر الذاكرة بقوّة، تحمي الوجود الإنساني في صوره المتعددة من الضياع. الذاكرة عماد الشعوب. وهناك تجليات عدة للتعبير عنها: التراث، العادات والتقاليد، الحكايات، الأساطير، الآداب، الفنون...الخ

الذاكرة لا تقتصر على الماضي وحسب، ولكنها آنية وهي أداة ضبط لسلام الفرد الداخلي وتصالحه مع الذات. وعندما يفقدها الانسان يتيه وهي تساعده في توجيه بوصلته في المستقبل.

من هنا نتساءل: ما هي الذاكرة التي نتركها لأولادنا وبناتنا؟ وما هو الإرث الفكري والحضاري والفنّي والتراثي الذي نتركه للجيل القادم؟ وهل الجيل القادم معني ومهتم بما ننوي أن نتركه له؟!

للأسف لست متفائلًا في جوابي عن هذا الموضوع، وأنا أرى اهتمام اولادي وأبناء جيلهم تتّجه نحو مناحٍ مختلفة غريبة ودخيلة على مجتمعنا العربي وعلى عاداتنا وتقاليدنا. فلا أرى أنّ أولادنا يهتمّون بالقراءة والآداب.

لقد ترك لنا آباؤنا وأجدادنا الكثير في هذا المجال، فقرأنا كل من نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وطه حسين وتوفيق الحكيم وغسان كنفاني. فعرفنا منهم الواقعية ومعاناة مجتمعاتنا وشعوبنا. كما عرفنا المتنبي وأبو النواس وهارون الرشيد، والفرزدق، والأخطل، وجرير. وترعرعنا على اشعار عنترة بن شداد وامرئ القيس، وبكينا مع الخنساء على أخيها صخر، وتألمنا على الحسن والحُسين، وتغزّلنا مع بني عذرة ومجنون ليلى، وأبحرنا حب عمر بن أبي ربيعة واستغربنا جرأته ووقاحته.

كما وعِشنا بطولات الملك سيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي والمهلهل وكليب، وحرب داحس والغبراء ومعارك البسوس والشاطر حسن، وغزوات خالد بن الوليد وعدل الفاروق عمر وتواضع عمر بن عبد العزيز. ولومنا بني أمية وأبا لهب وامرأته حمالة الحطب، وأحببنا آل البيت وتضامنّا مع سيدنا علي بن أبي طالب. وندبنا يوم أُحد حتى كدنا نشارك المسلمين في حربهم مع الكفار. فتعلّمنا التضحية والوفاء والعطف ومساندة الضعيف.

ومع ذلك لم ننسَ الفن والفنانين. فطربنا لسماع آهات ام كلثوم وعزف عود فريد الأطرش وقراءة الفنجان عند عبد الحليم حافظ. وأخذتنا "أسمهان" الى عوالم خارج مخيلتنا في ذلك الوقت، وقضينا معها "ليالي الأنس في فيينا" وشربنا معها قهوتها في أغنية "أهوى". كما متّعنا محمد عبد الوهّاب بألحانه وأغانيه، فركبنا "الجندول" وزُرنا "الكرنك" وتساءلنا "كل ده كان ليه". منهم تعلّمنا نقاء الحب وصفاء النيّة وأنّ الحب يبقى خالدًا مهما تغير وتجدد الزمان والمكان.

وجلسنا سوية، أيام الجمعة، نُشاهد حكايتنا وهموم شعوبنا العربية من خلال أفلام فؤاد المهندس وشويكار، وضحكنا مع إسماعيل ياسين وغوار الطوشة وأبو عنتر ورددنا "ياموووو يا ست الحبايب يامووو". وعلت ضحكاتنا عاليًا مع عادل إمام "ومدرسة المشاغبين" و "شاهد ما شفش حاجة". وتخيلنا أنفسنا أبطالًا وفتوّات من خلال معارك فريد شوقي وتوفيق الدقن ومحمود المليجي، واستعدنا شبابنا من خلال شخصيات رشدي أباظة وكمال الشناوي وفاتن حمامة وعمر الشريف وسعاد حسني وغيرهم من عمالقة الفن والتمثيل في زمن البراءة والسذاجة.

ولكننا لم ننسَ أن نكون أطفالًا، فجلسنا إلى جدّاتنا واستمعنا إلى قصصهن عن "جبينة" و "سندريلا " و "ليلى الحمرا" و "نص نصيص" وغيرهم، أصغينا وأشغلنا فكرنا وخيالنا، فبنينا قصورًا وقلاعًا. ولعبنا كثيرًا وركضنا أكثر. خرجنا صباحًا لنعود مساءً بعد استجداء ووعيد أمهاتنا. عُدنا متّسخين ملطّخين بالوحل والطين وجملة أمهاتنا المعهودة: "على الحمام دغري".

فلعبنا "الزقطة" و "الغمايّة" وتمزقت بنطلوناتنا عند الركبة من كثرة الركوع في لعبة "البنانير" أو "الجلول". وخرجنا لصيد العصافير، ونصبنا فخاخنا وعُدنا في جعبتنا بعض العصافير و "الحيايا" وبعض الجراذين والسحالي.

مع كل هذا لم نهمل دروسنا، فجلسنا، على مضض، نحفظ القصائد والمحفوظات وتقوم أمهاتنا "بتسميعها" لنا، ونقوم بتأديتها في اليوم التالي أمام المعلّم والطّلاب، بعضنا يجيدها والبعض الآخر يرددها على أنغام عصا المعلّم. فحفظنا الشعر وتبارينا به، ومثّلنا المسرحيات وأدّينا أدوار قيس بن الملوّح وليلى العامريّة، وأشعب وجُحا "وأبو قاسم الطنبوري" وغيرهم من الشخصيّات الخرافيّة الأسطوريّة التي لا زالت أصداؤها تتردد في أذهاننا. كل هذا بدون دروس ومعلمين خصوصيين ولا برامج مساعدة وتقوية.

كما حفظنا الآيات القرآنية القصيرة منها والطويلة، وأبهرتنا قصص الأنبياء والرسل والصحابة والأولياء الصالحين.

خرجنا في رحلاتنا السنويّة متحمّسين، وانضممنا إلى الحركة الكشفيّة ونمنا في الخيام وعلى الحجارة والصّخور، وأكلنا علب السردين وأرغفة الخبز الكبيرة. لم نحلم بفندق أو طائرة أو "بوفيه" مفتوح ولم نتسوّق في عواصم العالم، بل كانت أقصى مُتعتنا أن نعرّج إلى مدينة الناصرة لشراء الحلويات من محلات "المحروم" و "المختار"، من كنافة وبقلاوة وعش العصفور".

هذه هي ذاكرتنا، وما زلنا نراها أمامنا كل يوم: ذاكرة مليئة بالقيم والأخلاق والمروءة والنخوة والوفاء والسذاجة والبراءة وغيرها من القيم التي يفقدها أولادنا ونتنازل عنها يومًا بعد يوم.

آه أخذني الحماس حتى نسيت طرفتنا الأسبوعيّة:

"أرسل قرويٌّ ابنه إلى المدينة ليتعلم فيها. فانخرط الولد في إحدى الفرق الموسيقيّة وأهمل دروسه، ولم يتعلم سوى التزمير بالمزمار.

عاد الولد أخيرًا إلى قريته ومعه المزمار، وجلس قبل المساء على شرفة بيت أبيه، وأخذ يلعب على المزمار، فأقبل إليه بعض الفتيان مُعجبين. ثم كثر عدد الزائرين. فقال أبوه: " ضمنّا مستقبل الصبي وأصبحنا من الوجهاء" أخذت حفلات الزمار تتكرر كل مساء، وتزايد عدد القادمين، فقلقت أفكار بعض وجهاء القرية الآخرين.

فاقترح أحدهم أن ينافسوا الصبي وأباه وقرروا أن يلملموا أولادهم وأن يشتروا "دربكّة".

وذهب في اليوم التالي أحد رجال القرية إلى المدينة واشترى "دربكّة" وبدأ في الحال تصريف الأعمال: فإذا هبّ هؤلاء إلى التزمير ردّ عليهم أولئك بالضرب على "الدربكّة" – وما برد الرطل إلا رطل ووقية.

ولم يمض سوى قليل من الزمن حتى تشيع نصف أهل القرية إلى حزب الدربكّة والتحق الآخرون بفريق المزمار، وتعطّلت مصالح القرية.

رجل واحد لم ينجرف في تيّار الدقّ والتزمير وبقي على الحياد. فحاد عنه الجميع ونبذوه وتهجّموا عليه بعنف: "يا معنا يا علينا". فعاش الرجل وحيدًا حتى خشي أن يموت مكسور الخاطر. وفي صباح يوم شوهد الرجل يشدّ طبلًا على تارّة غربال عتيق فسألوه: "شو صار حتى قررت أن تصير طبّالًا، في آخر الزمان؟".

قال: "إن جنّوا ربعك، عقلك ما بينفعك".

فَذكّر إنْ نفَعَت الذكرى

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة